لماذا كانت نسبة الولد لله -سبحانه- من أعظم الذنوب؟

كنتُ إذا مررتُ بالآيات في أواخر سورة مريم، ينتابني الفزع، وأتعجبُ من شدة وقع المعاني الواردة فيها: (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وَلَدًا) قالوا جملةً واحدةً فقط، فانظر إلى أثرها في هذا الكون: (لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا . تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَـٰنِ وَلَدٗا)
هل يُعقل أن تكون لكلمتهم تلك كل هذا الأثر في السماوات والأرض؟ تتفطر السماء؟ تنشق الأرض؟ تخر الجبال؟ ما الذي حملها على كل ذلك؟ لا بد أن هناك سرا كبيرا، جعل هذه الكلمة -التي قالوها- تنطوي على كل ذلك السوء.

لم أكن أعلم العلة على وجه التفصيل، فقررتُ أن أفتش عنها، فبحثتُ في كتاب الله في المواضع التي ذُكرَتْ فيها نسبة الولد إليه -سبحانه وتعالى-، لأرى كيف بيَّن الله تلك الدعوى، وكيف ردَّ عليها؟ ومالصفات التي أبرزها في دحض ذلك الافتراء، فخرجتُ من البحث بما فيه البيان الكافي لكل ما رجوتُ معرفته والله في هذا الباب وأكثر، وهكذا هو القرآن، تبيانٌ لكل شيء، وشفاءٌ لما في الصدور، لا تطلب منه الهدى في بابٍ من الأبواب إلا وتجده شافيا كافيا، فالحمد لله على نعمة كتابه.

لماذا كانت نسبة الولد لله -سبحانه- من أعظم الذنوب؟
بعد البحث، وجدتُ أن أصول السوء في هذه المقولة الشنيعة، تعود إلى أصلين رئيسين:

السبب الأول: أنها قول على الله بغير علم، وكذبٌ وافتراءٌ عليه.

وهذا معنى واضح، لكنه مهمٌ جدا في فهم خطورة الأمر، فالقول على الله بغير علم هو من أعظم الكبائر وأشد المحرمات، والكذب عليه ليس كالكذب على غيره، إذ هو بوابة الشرك وتغيير الدين، فضلا عما فيه من نسبة ما لا يرضى إليه، ومما يبين شناعة هذا الأمر، أن الله ذكر أنه لا أحد أظلم ممن قام به (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا)، ولذلك، فقد ذكر الله هذا الذنب "كثيرا" في رده على من نسبوا له الولد، وقرَّر "مرارا" كذبهم وانعدام بينتهم في دعواهم تلك، كقوله تعالى:

-- (قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ).

-- (وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا.(

-- (أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ۝ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۝ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)

ومثلها آياتٌ كثيرة، وما ذُكر يكفي لبيان أن الكلام على الله بغير علم هو سببٌ من أسباب عِظم ذنب من نسب لله الولد، ويُستفاد منه أن نستعظم الكلام في ذات الله وصفاته دون علم، فذلك باب توقيفي لا نلجه إلا بسلطانٍ مبينٍ من كتابٍ أو سنةٍ صحيحة.

السبب الثاني: أنها نقيصةٌ لا تليق بكمال الله -عز وجل-.

وهناك آيتان تشيران صراحةً لهذا المعنى، وهما:
(وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا)
(مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَد)

وتفهم منهما بوضوح: أن اتخاذ الولد لا يليق بالله عز وجل، بل لا يُتصور أن يكون له، ويكفيك أن ترى نفيه سبحانه في كل تلك المواضع التي ورد فيها ذِكر افتراء الولد عليه في القرآن، وتنزيهه لنفسه عن هذه الدعوى بكلمات التنزيه كقوله: (سبحانه، سبحانه وتعالى)، لتعلم أنها نقيصةٌ عظيمة يتنزه عنها، وعيبٌ لا يليق به سبحانه وتعالى.

حسنا، هذا خبرُ الله تعالى عن نفسه، وهو الأعلم بنفسه، فمن الممكن أن نكتفي بمعرفة أن الله أخبرنا أن هذا قولٌ شنيعٌ لا يليق به كي يستقر ذلك في أنفسنا، فنستقبحَ ما استقبحه سبحانه، لكنه -مع ذلك- بيَّن في كتابه وجهَ كونه نقصا، وردَّ سبحانه على افترائهم العظيم ذلك بتفصيلٍ وبيان عظيمين، تفتح للعبد المتأمل أبوابا كبرى من العلم بربه، سأتطرق هنا لما يتيسر لي من ذلك:

لماذا كانت نسبة الولد لله -سبحانه- "منقصةً" في حقه؟ ومن أي وجهٍ كانت لا تليق به؟

الجواب: لأنها قدحٌ في صميم أسمائه وصفاته، وفي صميم ألوهيته، وفي صميم ربوبيته، وقد تعجبتُ -والله- وأنا أبحثُ في الموضوع، من كل ذلك القدر من العيوب والنقائص التابعة لهذه المقولة، وعلمتُ لماذا سماها الله شتما، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: (يَشْتِمُنِي ابنُ آدَمَ، وما يَنْبَغِي له أنْ يَشْتِمَنِي، ويُكَذِّبُنِي وما يَنْبَغِي له، أمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إنَّ لي ولَدًا...) أخرجه البخاري.

فلننظر سويا إلى بعض أبواب القدح والنقص المنسوب لله سبحانه، الواردة ضمنيا في هذه المقولة:

١. في نسبة الولد لله: قدحٌ في الألوهية:

من المعلوم أن الولد جزءٌ من والده، وهو شبيهٌ به، وتكون فيه بعض صفاته، فلو كان لله ولدٌ -سبحانه- لكان ذلك الولد فيه شيءٌ من صفات الألوهية، **ولاستحق العبادة لألوهيته**، ولذلك جاء في الآية: (قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ) أي: إن كان ولدا لاستحق العبادة، ولكنتُ عابدا له، على أحد أقوال المفسرين.

فصارت نِسبة الولد إلى الله بابا واسعا للشرك به، ويكفيها بذلك شناعة، ولذلك لم يجد النصارى بُدًّا من عبادة عيسى -عليه السلام- لما جعلوه ولدا، وكذلك فعل المشركون لما جعلوا الملائكة بناتا لله -سبحانه-، فهذا سببٌ من أكبر أسباب شناعة هذه النِسبة لله، وقد بيّن الله ارتباط هذين المعنيين (تنزهه عن الولد + وإفراده بالعبادة) في كتابه فقال:

-- (إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ)

فمن يتخذ لله ولدا: يكون إلهه شركاء، مرةً يلجأ لهذا، ومرةً يدعو هذا، كما يفعل النصارى أمام أعيننا اليوم.

٢. في نسبة الولد لله: قدحٌ في الربوبية:

من أخصِّ صفات الرب سبحانه: أنه متفردٌ بالخلق، متفردٌ بالملك، متفردٌ بالتدبير، وكما ذكرنا سابقا أن الولد شبيهٌ بوالده ولديه بعض صفاته وقدراته، فلو كان له ولدٌ -سبحانه- لاشترك معه الولد في تدبير بعض الأمر، ولاشترك معه في خلق بعض الخلق، ولاشترك معه في شيءٍ من سلطان الملك والتصرف في المملوكين.

فانظر إلى الآيات التالية التي تذكر دعواهم تلك، وانظر كيف يرد الله عليهم بتأكيده على أنه الرب وحده وكل ما سواه مربوب، لا يشترك معه أحدٌ في الخلق والملك والتدبير:

– (قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ۝ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

وفي ذكر "العرش" تحديدا تنبيهٌ لذوي العقول.

– (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ)

– (وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا)

– (ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا)

وهذا الباب هو أكثر الأبواب الواردة في القرآن في معرض الرد على مقولتهم تلك، وفيه أبلغ الرد، وذلك أنهم كانوا يؤمنون بأنَّ الخالق الرازق الملك المدبر هو الله وحده، ثم أقحموا -بعد إقرارهم ذاك- له ولدا، وهذان لا يستقيمان معًا، فذكَّرهم كثيرا الله بتفرده في كل ذلك، تفردا تعرفه فطرهم قبل عقولهم، لعلهم يتذكرون.

ومن عجيب ما لاحظتُ في هذا الباب، أن اسم الله "البديع" لم يرد في القرآن الكريم إلا مرتين فقط، كلاهما في سياق الرد على من ادَّعى الولد لله سبحانه، وهذا تلازمٌ يدعو للتفكر، ولربما كان أحد أسبابه -والله أعلم-

: أن البديع هو الذي خلق الأشياء على غير مثالٍ سابق، وتلك الصفة تستلزم التفرد، فلا يُتصور أن يكون مَن أبدع خلق السماوات والأرض والخلق كلهم، وصوَّرهم على غير مثالٍ سابق: إلا إلهٌ واحدٌ لم يشترك معه أحدٌ في ذلك، وإلا لم يكن مبدعا، فالبديع في اللغة -كما عرفه الزجاج-: (يقال أبْدعتُ الشيء إبْدَاعاً، إذا جئتَ به فَرداً لم يُشاركك فيه غيرك).

٣. في نسبة الولد لله: قدحٌ في أسمائه وصفاته:

لله سبحانه وتعالى أسماءٌ بلغت الغاية في الحسن، وله صفاتٌ بلغت النهاية في الكمال، وأسماؤه وصفاته هما بوابة معرفته، التي تؤدي إلى أجمل شيء في الوجود: محبته، فنحن لا نعبد إلها فرضَته علينا نظريةٌ عقليةٌ تحتِّم علينا وجوده فحسب، بل نعبد إلها له أسماءٌ ذاتُ معانٍ حقيقية، وله صفاتٌ جميلة، ومهيبة، وكاملة. نحن نعبد إلها رحيما، لطيفا، جميلا، قويا، عزيزا، قديرا، حكيما، وكما تزيدنا كلُّ صفةٍ من تلك الصفات معرفةً به، فإنها تفتح لنا ألوانا من العبوديات له، فالعظمة تورث لنا ذلا، والجمال يورث لنا محبة، والكرم يورث لنا رجاءً، وهكذا، ولذلك كانت معرفة الله هي أشرف العلوم، وأنفعها، وأهمها للعبد.

أقول ذلك لنعلم أنَّ **كلَّ قدحٍ في صفات الله سبحانه فهو قدحٌ في أشرف الأشياء على الإطلاق، وقدحٌ في أجمل الأشياء على الإطلاق، وتكذيبٌ لأصدق الحقائق، فمن انتقص متعمدا من كمال أي صفةٍ من صفاته سبحانه -فضلا عن نفيها عنه-، فقد جاء بأعظم الذنوب على الإطلاق.**

فكيف يكون في نسبة الولد لله -سبحانه- قدحٌ في أسمائه وصفاته؟

للولد -كما تقدم- جزءٌ من خصائص والده، ولو كان لله ولدٌ -سبحانه- لكان له حظٌّ من خصائص الألوهية، وتلك هي بوابة القدح في أسماء الله وصفاته.

فلو كان لله ولدٌ -سبحانه-، لكان ذلك الولد شبيها بوالده، ولَمَا كان الله **"ليس كمثله شيء"**.

ولو كان لله ولدٌ -سبحانه-، لما كان ذلك الولد مقهورا -لألوهيته-، ولما كان الله **قاهرا** لكل شيء.

ولو كان لله ولدٌ -سبحانه-، لما كان ذلك الولد مملوكا -لألوهيته-، ولما كان الله **مالكا** لكل شيء.

ولو كان لله ولدٌ -سبحانه-، لما كان ذلك الولد دون نفعٍ لوالده، ولما كان الله **غنيا** عنه وعن كل شيء.

ولو كان لله ولدٌ -سبحانه-، يشترك معه في الألوهية، لما كان الله **واحدا أحدا**، ولما كان **باقيا** وحده يوم تهلك الخلائق، ولما كان **أولا وآخرا**، ولما كان وحده **صمدا** تصمد إليه كل الخلائق، ولما كان وحده **عليما** بكل شيء، ولا وحده **قديرا** على كل شيء..

وعدِّد ما شئت من الصفات، فذلك القدح يجري على صميم تفرد الله بالكمال في كل صفةٍ من صفاته..

وهكذا، تجد أن نِسبة الولد لله سبحانه -والشرك عموما-، هو سقوطٌ في حفرةٍ لا قاع لها، وبوابةٌ لانتقاصٍ لا حدَّ له من الإله العظيم، يُنتقص منه فيها بتفرده في استحقاق العبادة، وتفرده بالربوبية، وتفرده بأحسن الأسماء وأكمل الصفات، ولذلك تجد الله -في آيةٍ عظيمةٍ جليلة- **يَحمدُ نفسه** بنفي ذلك البهتان عن نفسه، وفي حمده لنفسه بيانٌ منه أنَّ غاية كماله في تنزهه عن هذه الكذبة الكبرى:

-- (وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا).

فكبِّر الله ونزهه، وقل الحمد لله المستحق للثناء التام الذي لا قدح فيه، وتذكر كمال الله في كلِّ مرةٍ ينتقص منه الجاهلون، واعلم عِظَم هذا الذنب، ولا تفقد حرقتك وغيرتك على حرمات الله في كل مرةٍ تمرُّ عليك عبارة "ابن الله"، وتذكَّر أنَّ هذه العبارة التي اعتاد أن يقولها الخلق: كادت السماوات تتفطر منها، وتنشق الأرض وتخر الجبال بسببها، لأنها نقصٌ ومذمةٌ وقدحٌ عظيمٌ عظيمٌ عظيمٌ في جناب الله عز وجل.

